٧

ضحية المبادىء الحرة

و

فلسفة الحياة

(قصتان)

بقلم

المطران بولس الخوري

ضحية المباديء الحرة

و

فلسفة الحياة

(قصتان)

بقلم

المطران بولس الخوري

مقدمة

١ – ضحيّة المبادىء الحرّة

كتبتها في أثينا باللغة اليونانية . ونشرت قسماً منها في مجلّتي اليونانية « الأمل » عدد تشرين الأول سنة ١٩٢٢ .

وفي حدث بيروت لخّصتها باللغة العربية . وطبعتها سنة ١٩٣٢ بتوقيع (ب . خ) .

واليوم أعيد طبعها كما لخّصتها . مع تعليقات بعض الصحف عليها .

٢ – فلسفة الحياة :

في أواخر سنة ١٩٢٦ كنت في دمشق وقرأت في جريدة « النديم » البيروتية أنهـا خصّصت جائزة لمن يكتب أحسن قصّة صغيرة . فكتبت هذه القصّة وأرسلتها إلى الجريـدة المذكورة بتوقيـع (جورج خوري) وكانت إحدى القصص التي فازت بالجائزة .

صيدا في ١٠ أيار سنة ١٩٧٦ المطران

بولس الخوري

الاهـداء

إلى الروح التي أملت عليّ فحبّرت هذه الصفحات .

روح الوطنية المجردة عن الأحزاب .

روح المحبة لكل العالم بعد وطني .

بل روح المبادىء الحرة .

أثينا سنة ١٩٢٢

ضحية المبادىء الحرة

القرية

في إحدى ليالي كانون الأول سنة ١٨٩٦ وسماء لبنان ملبّدة بالغيوم ورؤوس جباله ملفّعة بالثلوج ، ويدُ الأرياح تلعب بقطرات المطر المتساقط ، وسهام البرق تمزق حجب الظلام ، وأصوات الرعد تعكر صفاء السكينة – كان رجال قرية كفرون مجتمعين في بيت شيخهم فيليب وملتفين حول النار يتجاذبون اطراف الأحاديث اللذيذة ، ويتداولون قصص الماضي المؤلمة ، ولم يكن غائباً عن هذا الاجتماع غير عجوز لم يقدر أن يخرج من بيته في ذلك البرد القارس . وبعد أن أفرغ كلٌّ ما في جعبته من الأخبار انتقلوا إلى الكلام عن الغائبين ، فدار الحديث عن ذلك العجوز الذي أصبح مقعداً في فراشه ليس بسبب الشيخوخة فحسب بل ومن الدهر الذي أخنى عليه بكلكله .

قال فتى حديث العهد بمثل هذه الجلسات .

ماذا جرى للعجوز داود حتى تأخر لهذه الدرجة ، وقد سمعت انه كان من أصحاب الثروات الطائلة ؟

أجابه آخر :

ان داود كان صاحب أملاك واسعة تدر عليه الخيرات الوافرة ولكنه كان يميل إلى الكتب ويقضي اوقاته بمطالعتها ، ويهمل أمر أملاكه ومع ذلك كان لا ينقطع عن عيشة الرفاهية التي تعودها . وما مضى وقت طويل حتى اصبحت أغلال املاكه لا تقوم بالنفقات اللازمة لحفظ كيانها . وعندما شعر بأفول نجم غناه ذهب إلى احد اصحابه التجار في المدينة الذي كان يقضي ايام الصيف في داره وطلب اليه ان يمده بكمية من المال ليسد عجزه بها ، وهذا الصديق لم يجب طلبه

إلا بعد أن رهن له قسما من املاكه . واخيراً ما زال يفك رهناً ويعقد آخر حتى فقد كل املاكه .

وقال آخر : لماذا لم يشتغل هذا الرجل بعد أن امسى فقيراً والشغل ليس فيه من عار ؟

فأجابه رجل طاعن في السن :

ماذا يمكنه ان يشتغل ولم يتعلم صناعة وما عُوِّد حمل المعول . ولا يطاوعه إباؤه على التسوّل ، ولا يسوّل له مركزه الاجتماعي السابق الخدمة في بيوت الأغنياء الذين لا يقبلون في خدمتهم إلا من كان موافقاً لرغائبهم ،

فردد الحاضرون هذه العبارة : « الله يساعد الفقير » . أما الشيخ فيليب فكان كل الوقت ساكتاً يداعب سبحته ولم ينبس ببنت شفة .

* * *

مضى الليل وسرعان ما يمضي على النائم المطمئن . فمزقت اشعة النور حجاب الظلمة ، وبرزت الغزالة فبددت جيوش الغيوم ونشرت اشعتها الذهبية في الأفق فبانت قبته الزرقاء وارسلت لعابها إلى الأرض فأحيى نباتها . وخرج الناس من بيوتهم يجدّون في طلب رزقهم ولسان حالهم يقول : « بعرق جبينك تأكل خبزك » .

والطفل رفيق لا يزال يغط في نومه الهادي . صار الضحى ودخل شعاع الشمس من زجاج النافذة ووقع على عينيه ففتحها . وإذا به يرى والدته هيلانة واقفة فوق سريره تنتظر يقظته لترضعه من لبانها الممزوج بمبادىء الفضيلة . وتنظر إلى الطبيعة التي مثلت امس ببردها وغيومها لوعة قلبها على طفلها النائم ، وتمثل اليوم بحرارتها وصفائها

سرور الأم بيقظة ولدها سالماً . وهي تشكر الله قائلة :

« ما اعظم اعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت » .

* * *

العائلة

إن عائلة الشيخ فيليب هي من بقايا الأسر القديمة التي تولت الحكم في لبنان . وقد بقيت على رغم الزمان محافظة على قسط وافر من مجدها . لأنها ما استبدت بضعيف ولا ظلمت فقيراً ولا ترفعت عن العمل ولا كفرت بالله تعالى .

لا شك في أن سعادة العائلة تقوم بالمحبة المتبادلة فيما بين اعضائها ولذلك نرى عائلة هذا الشيخ تنعم بقسم وافر من السعادة .

أما عمل الزوج فكان الإهتمام بأملاكه والاعتناء بحراثتها واستغلالها وقد امتاز بحرية افكاره وابتعاده عن التعصب واحترامه لجميع الناس على اختلاف أديانهم . وأما زوجته فكان عملها تدبير المنزل وكانت تعتبر ان من اقدس واجباتها توفير أسباب السعادة لزوجها وتربية ولدها الوحيد بنفسها .

واما الصغير رفيق فكان ينمو عقلا وجسداً ويتشرب من والديه أسمى الأخلاق واشرف المبادىء . فعن والده أخذ الصدق في اقواله والأمانة في اعماله والاحترام للآخرين ليحترموه والتفكير في مستقبله. وعن والدته الإيمان بالله والصلاة اليه والتردد إلى الكنيسة في أيام الآحاد والأعياد .

ولم يكن تعليم هذين الوالدين لولدهما بالأقوال فحسب بل وبالمثال

الصالح الظاهر في حياتهما الفاضلة . و « التعليم بالمثال خير من التعليم بالأقوال » .

والقدوة الحسنة لها تأثيرها في نفوس الأطفال وقد أحسن الشاعر القائل :

ان الغصون إذا قومتها اعتدلت
ولا يلين إذا قومته الحطب

ولكن يظهر ان معارف الشيخين بأصول التربية والتهذيب كانت غير كاملة لأنهما أحسنا تهذيب النفس وأهملا تربية الجسد . فنشأ ولدهما نحيف البنية بعكس ابناء لبنان المشهورين بقوة عضلاتهم بفضل مناخ لبنان الجيد وسمائه الصافية وهوائه النقي .

وقد اثبت العلم ان التربية الجسدية لا تقل أهمية عن تهذيب النفس وإذا كان التهذيب الروحي يبتدىء منذ ولادة الطفل فالتربية الجسدية يجب أن تبتدىء منذ تكون الجنين .

* * *

مدرسة القرية

ولما بلغ رفيق السابعة من عمره ارسله والداه إلى مدرسة القرية . وهي عبارة عن معلم واحد وعدد من الصغار لا يتجاوز الثلاثين . وترى الاولاد يخافون معلمهم وربما يبغضونه وأحياناً يهربون من المدرسة ولا يعودون اليها إلا تحت تأثير الضرب . مع ان أساس التعليم هو المحبة . والمعلم الذي لا يعرف أن يحبب تلامذته به وبمدرسته قلما يفيدهم . ولو انصفت الأمة لاعتنت بهذه المدارس الصغيرة التي هي الاساس في بنائها وعليها يتوقف مستقبلها . ومن الخطأ ان يسندوا مهمة

التعليم إلى كل من يعرف مبادىء العلوم ، لأن مـــا كل من يعرف علماً يعرف أن يعلمه . فالتعليم فن قائم بذاته .

وهناك أمر هام طالما نبّه الشيخ بني قومه له قائلا : أراكم تصرفون الدراهم التي تحصلونها بعرق الجبين في مشترى ثياب ومآكل لا حاجة لـكم بها وليست ضرورية ، وفي الوقت نفسه تبخلون بالدرهم على المعلم المسكين الذي يذيب نفسه كالشمعة لانارة عقول اولادكم .

وفي احدى الليالي كانت الوالدة تسامر ولدها فقالت له : اتحب يابني أن تصير رجلا راقياً في المستقبل ؟ فأجابها : كما تريدين يا أمي .

فقالت له : إذاً يجب عليك انتذهب إلى إحدى المدارس الداخلية لتدرس العلوم بأصول ، وللحال ذهبت وإياه إلى والده وقررا إرساله الى المدرسة الافرنسية .

* * *

المدرسة الافرنسية

إن الوطنيـــين في لبنان إذا أرادوا إرسال اولادهم إلى مدرسة داخلية لا يقصدون إلا مدارس اجنبية لأنها ارقى من الوطنية ، وهناك عدة مدارس للأجانب اشهرها للفرنسيين والاميركان . ومن المعلوم ان التلامذة ينشأون على مبادىء معلميهم .

فصديقنا الشيخ اخذ ولده الى اقرب مدرسة من قريته — المدرسة الإفرنسية في لبنان — وهي قائمة على قمة جبل جميل تحيط بها اشجار الزيتون والغار والسنديان .

بالطبع ان رفيق وجد صعوبة في باديء الامر إذ وجد نفسه بعيداً عن أهله ، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى ألف الحياة المدرسية

واتخذ له من التلامذة رفقاء واصدقاء . وكان مجتهداً في دروسه ولكنه لم يكن مداوماً على الألعاب الرياضية ، مع ان الرياضة البدنية لازمة للجسد كلـُزوم العلم للنفس .

وقضى في هـــذه المدرسة السنوات التي يعينها قانونها حتى نال شهادتها التي تؤهله لدخول الجامعة .

* * *

الجامعة الاميركانية

في أول تشرين الأول سنة ١٩١١ أرسل الشيخ ولده إلى الجامعة الاميركانية في بيروت .

في هذه المدرسة رأى صديقنا طريقة التعليم غيرها في المدرسة الاولى ، ومبادىء المعلمين غيرها في معلميه السابقين . فاستغرب ذلك ولجأ إلى البحث عن أسباب هذا التغيير ، ويظهر أن اهتمامه بالتنقيب عن الاسباب ولّد في نفسه محبة الفلسفة .

لم يطلب العلم رفيق ليتخذه مهنة يعيش منها بل أراد ان يتتبع أبحاث المتقدمين في المواضيـع التي يميل اليها .

وهنا يرى العلوم غير كافية لتحقيق رغبته لأنه ابتدأ يدقق في كل علم ويبحث عن علاقته مع الحياة الواقعية ، غير مكترث كثيراً بحفظ ما يلقنُه المعلمون .

والحق يقال ان العلوم لا تزال مقصرة عن اظهار الحقائق .

فعلم الطبيعيات يبين لنا فعل المادة ولكنه لا يحددها ، يقول مثلا ان القوة تفعل كذا وتقاس بكذا ولكنه لا يقول ما هي القوة .

والتاريخ يضم آراء كثيرين في كل قضية . ومن اصعب الامور ان يقف الإنسان على حقيقة تاريخية . لأن كل مؤرخ يسطّر الحوادث بقياس عقليته وحسب غاياته واهوائه .

وعلم الطب ينقض اليوم ما قرره أمس لأنه مبنيّ على التجارب .

وعلم الفلسفة إن هو إلا مفكرة ضخمة تضم في صفحاتها آراء الفلاسفة الذين بحثوا عن الحقيقة ولكنهم لم يدركوها .

وعلم الحقوق ليس إلا سجلا كبيراً يضم بين دفتيه مواد القوانين .

وهناك علم يشتغل بالحقائق اكثر من غيره لانه يستند على الارقام والمقاييس . ولكنه لا يأتي بفائدة إلا إذا استخدمه صاحبه للاعمال النافعة وهو علم الرياضيات .

وأولى القضايا التي اشغلت فكر رفيق هي الثلاثة التي اشغلت العقل البشريّ من قديم وأعني بها : كيف وجد الإنسان ؟ — ما الغاية من وجوده ؟ مصيره بعد الموت ؟ ولم يجد جواباً مقنعاً على هذه الاسئلة إلا في علم اللاهوت .

ولم يقف عند هذا الحد في أبحاثه بل تعداه إلى الاهتمام بشؤون بلاده .

إن لبنان كان في ذلك العهد تحت سلطة الدولة العثمانية . والاجانب فيه يتمتعون بامتيازات خاصة .

ويظهر ان هذا التمييز بين الوطنيين والاجانب لم يرُقْ كثيراً بطل هذه القصة وحرّك فيه رغبة الكتابة في هذا الموضوع .

ولم يكن بعد قد سمع النابغة « باستور » يخاطب أمثاله الطلبة

قائلا : « ليسأل كل منكم ذاته قبل كل شيء . ماذا فعلت لتهذيب نفسي ؟ ومتى تهذب عندئذ ليسألها : ماذا فعلت لوطني ؟ إلى ان يبلغ الدرجة التي تؤهله لخدمة الإنسانية جمعاء » .

وبالإختصار شرع صديقنا بتحبير المقالات وارسالها إلى الجرائد الوطنية . فمنها مانشر . ومنها ما طوي . وعندما اشتدت لهجة كتاباته امتنعت كل الجرائد عن نشرها .

رأى ذلك صاحب المبادىء الحرة فحزن شديداً . وفكّر في إنشاء جريدة خاصة تنشر له أفكاره .

* * *

الصحافه

أنهى رفيق دروس الدائرة العلمية في الجامعة وخرج إلى المجتمع البشريّ . وليس له من رأسمال سوى معارفه العلمية . أضف اليها مبادئه الحرة .

فكّر ككل فتى متعلم في الطريق التي يسلكها لتحصيل رزقه ولخدمة وطنه . ولم يكن من الممكن ان يعود وهو المتعلم لاقتفاء أثر أبيه في العناية بالارزاق . ولم يبق له مال (وقد فقد اباه) ليتابع درس فن من العلوم والتخصص به .

لذلك سوّلت له نفسه واندفع مع تيار مبادئه الحرة للدخول في دولة الصحافة .

ظهر العدد الاول من الجريدة الجديدة حاملا اسم « المبادىء الحرة » ومصدّراً بالمقالة الافتتاحية المستهلة بهذه الآيات :

الاديان كلها من الله – الحرب اعظم الشرور – يجب ان تتحد الاديان – يجب ان ينزع السلاح ويسود السلام العالمي" .. الخ

فأحدثت هذه الجريدة ضجة في عالم الصحافة ، ولم تصادف إستحساناً عند الادباء القليلي العدد .

امّا الاكثرية فلا تطالع في الجرائد غير الاخبار عن البلدان البعيدة وقلما يهمها مطالعة اخبار بلادها .

وامّا المشتركون في هذه الجريدة فكانوا قليلين جداً ، وبالتالي كانت نفقات الجريدة أكثر من إيراداتها ، ومع ذلك تابع إصدارها غير مبال بالخسائر اللاحقة به والمتراكمة ديناً عليه ، لان سروره بنشر أفكاره تغلب على شعوره بالاتعاب والخسائر .

– ما هذا السر الغريب؟ – سر الحياة – يظن المرء سعادته حيث يجد لذته . كم من الناس من يقضي نهاره بالتعب والكد ليحصّل درهماً ويذهب في المساء ويدفع ذلك الدرهم ثمن كأس من الخمر .

ان البعض يطلبون الشهرة عن طريق الصحافة أمّا رفيقنا فلم يخطر أمر الشهرة في باله ، لانه كان يعتقد أن السعادة لا تأتي الإنسان من خارج وإنما هي في داخله .

ولكنه كما يظهر أراد إصلاح المعوّج من مبادىء أمته ، غير عارف ان إصلاح الأمة هو امر كسائر الأمور يجب ان يبدأ به من أساسه . والصحافة التي يقصد بها إصلاح المجتمع تأتي بعد إصلاح البيت والمدرسة . ولا يمكن لمن شب وشاب على شيء ان يتحوّل عنه .

وهل يتم الإصلاح إلا بتربية الصغار في عائلة طابت سيرتها وتثقيفهم في مدرسة وطنية تبث في نفوسهم الغضة روح المبادىء الحرة . اما

أولئك الذين ينادون بالإصلاح فالأولى بهم ان يصلحوا نفوسهم وان يقوموا بما يطلب منهم كل ضمن دائرته . وباصلاح الافراد يتم إصلاح المجموع .

* * *

لبنان اثناء الحرب

قام الناس وقعدوا لنشوب الحرب الاوربية سنة ١٩١٤ وبعد أن ظنوا انها ستنتهي بأشهر عدة اصبحت حرباً عالمية وامتدت إلى الحين الذي كان الله وحده علم به من قبل .

بقي رفيق في وطنه مدة الحرب كلها ، ولم يكن من رأيه ان تقف حركة العمل بسبب انقطاع البلاد عن عالم الغرب ، بل كان ينصح أبناء وطنه بالعناية بزراعتهم وصناعتهم ليعيشوا من محصولات أرضهم ويكتسوا من مصنوعات أيديهم ، منبهاً إياهم إلى وجوب الاستقلال الإقتصادي الذي هو وحده يكفل لهم سعادتهم ، لأنه كان يعتقد أن من واجبات المتعلم ان ينفع بني قومه بعلمه ومعارفه ، وكان يردعهم عن التحزبات السياسية لاعتقاده ان لا نفع لوطنه من السياسة ما دام خاضعاً لدولة أخرى .

لو قصدنا ذكر الحوادث التي جرت في لبنان أثناء الحرب لملأنا مجلداً ضخماً وليس ذلك من شأننا هنا ، وإنما لا يسعنا ان نهمل ذكر حادث يهم المطالع وهو إعدام عدد من شبان لبنان الأحرار بحجة انهم كانوا يشتغلون في سبيل استقلال بلادهم .

نعم ان أولئك الأبطال أرادوا ان يخدموا وطنهم وقد بلغوا أمنيتهم . وأيّ خدمة أعظم من تضحيتهم بنفوسهم في سبيل بلادهم؟

رأى اللبنانيون حاكمهم المستبدّ يأمر بتعليق أحرارهم في ساحات مدنهم ولا ذنب لهم سوى أنهم كانوا وطنيين . فماذا فعلوا ؟ لا شيء .

إلى أرواحكم السامية يا شهداء لبنان أرسل سلاماً من نفس تتمنّى إكليل الغار الذي نلتموه . وإذا ما نمت فكرة القومية العربية التي سقيتموها بدمائكم وانبعثت الأمة العربية من لحدها عندئذ تحيون ولا شك بذكراكم ومبادئكم الحرة .

★ ★ ★

جمال باشا

في أحد الأيام بينما كان جمال باشا متنقلا في قرى لبنـــان مرّ بكفرون . فاجتمع أهـــالي القرى المجاورة وخرجوا يستقبلون الحاكم التركيّ العظيم الشان . وما استقرّ به المقام في بيت شيخ القرية حتى وقف الخطباء والشعراء يتغنّون بفضائل حاكمهم العادل ويوقدون أمامه بخور الخضوع والعبودية .

سمع رفيق هذه الأقوال وقابل بينها وبين المظالم التي لحقت بهذه البلاد من جور ذاك الطاغية فلم يتمالك السكوت . وللحال تقدّم إلى الباشا وقال: سمعت يا صاحب الدولة ان فخامتكم تقدّمون لفقراء البلاد إعانات من الحبوب . وبما ان هذه القرى لم يصلها شيء من إنعاماتكم فاني أرجو دولتكم ان تتكرموا على هؤلاء الخطباء والشعراء بشيء لأنهم يتضوّرون جوعاً .

أجاب الباشا : عجباً كيف لم تصل انعاماتي الكثيرة إلى هـــذه المقاطعة . والآن قل لي أيها الفتى : ماذا تريد وظيفة أم لقباً أم وساماً ؟

فأجابه رفيقنا : أشكر دولتكم على هذا التنازل وثقوا اني لا أريد

شيئاً من كل ذلك . فأخذ العجب من دولته كل مأخذ لأنه لم يتقرّب اليه أحد إلا لطلب منفعة لنفسه .

ثم دار بينهما الحديث الآتي :

الباشا — أرى أنك بعيد النظر يا فتى ، فقل لي . ما هو رأيك في هذه الحرب العالمية ولمن يكون النصر في نهايتها ؟

رفيق — أنّى لي موهبة النبوءة وقد قال الشاعر العربي :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

إنما امتثالاً لأمركم اعرض لديكم رأيي الضعيف وأقول : ان النصر سيكون بجانب أحد الطرفين ولكن النتيجة في كلا الحالين هي واحدة للشرق الذي يتنازع الغرب على تقسيمه .

فقطب الباشا حاجبيه ونظر إلى مكلمه شزراً كأنه لا يريد ان يرى صورة المستقبل السوداء التي ستقضي على عظمته وجلاله . وقال لرفيق: أتعلم ان رأيك هذا يرسلك إلى الديوان العرفي في عاليه ؟

أجابه رفيق : إنك قادر على كل شيء وهل سألت أحداً فيما تفعل حتى تسألني الآن ؟

فضحك الباشا من هذا الجواب وانتهز رفيق هذه الفرصة النادرة وأراد ان يلقي على ذاك الطاغية درساً لعله يذكره بعد أفول نجمه . فقال لدولته : أتعلم يا مولاي انه يمكنكم ان تتركوا للتاريخ عملا عظيما يسجله لكم بأحرف من ذهب . وذلك ان تحلوا المسألة الشرقية التي لا تزال محوراً تدور حوله السياسة الدولية وحلها بيدكم . فما عليكم إلا ان تعلنوا استقلال البلدان التي تحت سلطتكم وأن تحتفظوا بحق الأشراف عليها .

وكأن الباشا تخدر دماغه من هذه الاحلام المخيفة التي أثارها في رأسه كلام رفيق . فقال له مستدرجاً إياه : أليس من خطر على تركيا إذا تحررت هذه البلدان الخاضعة لها ؟

أجاب رفيق : كلا . لأن هذه الشعوب الضعيفة قد اعتادت الخضوع للأجانب فلا تستطيع أن تعيش منفردة عن الدول الكبيرة مثل دولتنا العلية .

وكأن دولته قد استفاق من سباته فانتفض كالعصفور بلّله القطر وصرخ برفيق : ويل لك . أبحضرتي تبث مثل هذه السموم !!..

لو لم تكن فتى صغير السن لأمرت بقطع رأسك .

وما سمع الجمع المحتشد هذا الصوت حتى ارتعبت قلوبهم وارتجت فرائصهم وصاحوا :

« لتحيى دولتنا العلية . ليعيش حاكمنا العادل » . وارتمى المتقدمون فيهم على أقدامه يسألونه عفواً عن فتى صغير لا يفقه ما يقول .

وبعد اللتي والتي تنازل وتعطف وقبل ان يكتفي بنفي رفيق قصاصاً له على وقاحته وتطاوله . وهكذا كان .

* * *

الدير

على أكمة من آكام لبنان تكلل هامها اشجار الصنوبر والسنديان بنى الأقدمون مقاماً لعبادة الله ثم جعلوه ديراً للزهد والتنسك .

إلى هذا الدير نفى جمال باشا رفيق ولم يرسله لبلاد الأناضول حيث

أرسل عدداً وافراً من رجال لبنان .

لم يكن للفتى أقل معرفة بأحوال الأديار ولم يسمع عنها كثيراً وما علق بذهنه مما سمع عنها غير عبارة قالها والده في ساعة كدره وهي :

هنيئاً للذين يلجأون إلى الاديار فيهربون من متاعب العالم ويقربون من الله .

في هذه العبارة كان يفكر رفيق وهو ذاهب إلى الدير .

أول ما شعر به في الدير هو الوحشة وقد ظن في البدء انه من المستحيل عليه ان يستأنس بسكنى الدير وان ينسى وحشته وحزنه ولكن سرعان ما نسي ذلك وصار يجد لذة بالوحدة التي فتحت له مجالاً واسعاً لمحاسبة نفسه على ما مرّ من أعماله . وما زال يتردد على حرج من الصنوبر يقضي فيه أكثر ساعات نهاره حتى ألف العزلة وصار يشعر بقوة غير منظورة تنزل على نفوس النساك فتقوّي فيهم شعور التعزية والسلوى .

وبمناسبة وجوده في الدير درس الكتب الدينية وتابع حياة الرهبان اليومية وتردد على الكنيسة . فأعجب بحكمة الصلوات الكنائسية وأدرك أن المرء لا يجد تعزيته الحقيقية إلا في الدين .

ولكنه لاحظ ان بعض الرهبان لا يفقهون فلسفة الدين ولا يشعرون بسعادة التوحد . ورأى ان عيشة التوحد تساعد الأديب على العمل في حقل العلم والفن والأدب أكثر من العيشة في المجتمع الإنساني . ولولا ميل في نفسه للسفر إلى أوروبا لما فضّل على الدير مكاناً لسكناه .

* * *

بعد الحرب

وقعت الهدنة ودخلت جيوش الحلفاء لبنان وعادت مياه الأمور إلى مجاريها . فمات من قدر له وبقي في قيد الحياة « كل طويل العمر » نسي الأحياء أمواتهم ونسوا معهم تلك المصائب كأنها لم تكن .

مرّت البشرية بتلك المأساة التي لعبتها يد المطامع على مسرح الحرب الكونية مرور المطالع بصفحات هذه القصة .

كم من فصول يمثلها الأفراد والأمم ويحفظها التاريخ من السلف إلى الخلف . فهل اتعظت أمة بمن تقدمها أو انتفع قوم بمصائب الأقدمين ؟

سر رفيقنا بانتهاء الحرب وبعد أن قضى مدة أكثر من سنة بين أهله واستعاد قواه التي أنهكتها أيام الحرب سافر إلى رومية . وكان كل ما يراه في طريقه يذكره بمثله في وطنه فكل جبل يظنه من جبال لبنان وكل ميناء يذكّره شواطيء فينيقيا . وقد ذكر في رحلته الفينيقيين الذين خاضوا غمار الأسفار ونقلوا مدنية الشرق إلى الغرب .

* * *

رومية

كانت الساعة الفاصلة بين عامي ١٩١٩ — ١٩٢٠ عندما بلغ رفيق ساحة رومية الكبيرة المدعوة (بياتسا كولونا) . فرأى الأنوار الكهربائية تشع في أرجائها والهدوء والسكينة يخيمان على دورها . فشعر براحة لا يعرفها إلا من نجا من مخاطر البحر وهبط اليابسة . وبعد أن استراح من اتعاب السفر عدة أيام خرج يزور آثار هذه

المدينة التي كانت عاصمة العالم في الزمان القديم . ولما وصل إلى (الكبتوليو) وقف أمامه يخاطبه بهذه العبارات :

أيها القصر يا معقل الملوك الجبابرة الذين بسطوا قديماً سيطرتهم على العالم بأسره ، مالي أراك قد رضيت البقاء إلى هذه الأيام التي أمسيت فيها طللاً دارساً ؟

لا شك في أنك أصبحت شاهد عدل على بطلان عظمة الإنسان وزوال مجده في هذا العالم . أين أولئك الملوك الذين كانوا يملأون أهراءهم من اغلال لبنان ليروا لبنان اليوم يعجز عن إعاشة بنيه ؟

بربك أيها القصر أفدني : هل يجيء زمان يدور فيه دولاب هذا الدهر فتعود العظمة إلى أربابها ويعود لبنان إلى سالف مجده .

بربك قل لي : هل الدول كالافراد يهرم كبيرها وتدركه الشيخوخة وينمو صغيرها فيصير كبيراً . .

وبعد أن أخذ التأثر منه كل مأخذ على أثر هذه المناجات الخيالية سار يقصد متنزهاً يسرح فيه غيوم أفكاره . وإذا به أمام أعظم متنزهات رومية المدعو (فيلابور ياسي) ولما دخله ومشى بين أشجاره وباحاته وصل إلى أعلى مكان فيه وأدار طرفه فرأى رومية مبنية على سبعة آكام ونهر التيبر يمر في وسطها فيشطرها شطرين كأنها القلب إذا قدّ في وسطه . وما زال يمتع نظره بتلك المناظر الفتانة حتى قرعت أجراس البستان تؤذن الناس بالخروج منه .

وفي أحد الايام التالية استأنف زياراته فدخل أحد السراديب التي كانت ملجأ المسيحيين القدماء في أيام اضطهاداتهم . وهنا تصوّر حقيقة تلك الاضطهادات التي طالما طالع عنها في التاريخ وكأنه رأى أمام

عينيه أولئك القديسين الذين فضلوا السكنى في ثقوب الارض على إنكار مبادئهم. تلك المبادىء الجديدة في عصرها التي هاج لها أصحاب السلطات والمصالح الشخصية لانها كانت تقضي على سلطتهم ومصالحهم.

وأخيراً زار كنيسة القديس بطرس التي تعد من أعظم كنائس العالم فناً وفخامة.

وبعد أن تمتع بزيارة ما تاقت اليه نفسه من آثار رومية عزم على السفر إلى أثينا ..

* * *

جزيرة ثيرا

وفي طريقه مرّ باحدى جزر اليونان (ثيرا) وهي عبارة عن عدة جبال معلقة فوق البحر تعليقاً وفي رؤوسها براكين فاتحة افواهها وفوق تلك الجبال وبين تلك البراكين مفازة لا نبت فيها. ومع ذلك رأى عدة قرى آهلة بالسكان فعجب من محبة اليونانيين لاوطانهم وقال في نفسه: أين هذا الوطن من لبنان الذي طاب ماؤه وصفت سماؤه وغرد العندليب في رياضه وطابت بنت عنقوده ؟

أين محبة اللبنانيين لوطنهم الذي لو اعتنوا به لدر عليهم لبناً وعسلا؟ من محبة هؤلاء القوم الذين يقاسون الاهوال لتحصيل رزقهم وهم متمسكون بوطنهم لا يرضون عنه بديلا.

* * *

أثينا

في صباح يوم أطلّت الشمس من وراء جبل (الإيمتوس) على (الاكروبول) تحيي أرواح اليونانيين الذين تركوا مثل هذه الآثار

الخالدة ــ وصل رفيق إلى شاطىء (بيرايا) قاصداً أثينا مدينة الحكمة التي طالما تاق لزيارتها نظراً لما طالعه في التاريخ عنها. فصعد تواً إلى قمّة الاكروبول وهي عبارة عن أكمة كانت قديماً في طرف المدينة كما يدل اسمها وأصبحت اليوم في وسطها. ولما وصل إلى باحة تلك القلعة الحصينة التي تمثلت بجدرانها آيات الفن والصناعة. وتجسمت بأعمدتها تلك الارواح الطامحة إلى العلاء. ألقى بنظره إلى المدينة فرأى شوارعها المستقيمة وقصورها الحديثة، ورآها كلها حول قمة الاكروبول تحتضن هذا الاثر الثمين احتضانها للعلم والمجد والمدنية اليونانية التي يحافظ عليها اليونانيون بكل قواهم. لتبقى شهود عدل على عظمة أسلافهم وعلى صحة ما يفاخرون به من أصل عريق وشرف تليد.

فحيى تلك الآثار التي حفظت لهذه العصور المتأخرة علم وفن تلك العصور المتقدمة.

وقال لنفسه: هنيئاً لهذه الامة التي لها تاريخ واحد ووطن واحد وقومية واحدة ولغة واحدة ودين واحد وكل هذه الاواصر تحفظ كيانها.

ولذلك ترى اليوناني أينما حل ينتسب لاصل واحد ويفاخر بجنسيته.

وقابل بين هذه الامة وبين أمته التي كثرت فيها القوميّات والاديان.

ومن هناك انتقل إلى الاكمة القريبة من الاكروبول المدعوة (اريوس باغوس) حيث كانت تجتمع المحكمة العليا قديماً. وحيث وقف الرسول بولس وألقى خطابه على الرجال اليونانيين عن الإله المجهول كما ورد في كتاب أعمال الرسل. ثم زار قبر الفيلسوف سقراط.

والبستان العمومي، والملعب الكبير (ستاذيون) والمتاحف . وأخيراً زار جامعة العلوم التي تضم أكثر من عشرة آلاف طالب فسر بهذه النهضة العلمية .

وكان أثناء تجوله في أثينا يردد هاتين الكلمتين :
رومية وأثينا . أثينا ورومية ..

* * *

جمعية الامم

يصعب علينا ان نعرف مبادىء وأخلاق رفيق، وإنما نستنتج مما قرأنا عنه إنه يحترم كل الناس على اختلاف مذاهبهم – يحب وطنه ولا يكره بقية البلدان – يتمنى لبني قومه أن يؤلفوا أمة واحدة ويتجنسوا بجنسية واحدة، ولكنه بالحقيقة يعتبر الكرة الارضية وطن جميع الناس والإنسانية جنسيتهم – يعتقد ان الحقيقة في الوجود هي واحدة وان الناس لو فهموا الحقيقة لما كان شرّ أو ظلم أو تفاقم شقاق . وهناك مبدآن كان رفيق يفكر فيهما منذ حداثته . ولكن عندما كبر وأطلع على أحوال الامم والشعوب رأى ان أفكاره التي كانت تحوم حول هذين المبدأين ما كانت إلا أحلاماً ذهبية . وهذان المبدآن هما اتحاد الاديان ونشر السلام .

ومع ذلك لم يهدأ له بال حتى سعى لخدمة هذين المبدأين على قدر امكانه، لذلك سافر إلى جنيف وقصد عصبة الامم في حين اجتماعاتها . فاستأذنها بعرض بعض المطالب لديها، وإذ سمح له دخل قاعة الاجتماع وألقى كلمة شفوية ذكرت بعض الجرائد مضمونها وهذه خلاصتها . قال :

ان الشرائع الدينية والمدنية بنيت على أساس حرية الفرد، والإنسان

مع أنه حلّق في الجو ومشى فوق المياه واكتشف واخترع كثيراً، لا يزال إلى اليوم يجهل استعمال حريته في موضعها ويتجاهل سعادته الحقيقية .

ولما تشكلت هذه الجمعية الكبرى لتكون حكماً بين دول الارض قلت في نفسي إن الإنسان قد وجد ضالته وقد ضمن حريته وسعادته، على هذا الامل جئتكم ورائدي الاخلاص وثقتي كبيرة في تحقيق أمنيتي وها أناذا ماثل لديكم أرجو ان تنظروا بعين الحكمة الى كلمتي المجرّدة.

فيا حضرة أعضاء هذه العصبة الكريمة انتم نواب العالم، وبيدكم ان تكتبوا للبشرية سعادتها أو تعاستها، كل منكم يدافع عن الشعب الذي انتدبه ممثلا له في هذه الجمعية . فكل منكم إذن مطالب بالمحافظة على حقوق شعبه، فأنتم بمجموعكم كتلة تحافظ على حقوق الشعوب وتسعى لخيرهم وسعادتهم . فهل يقوم ذلك يا ترى بإشهار الحرب وقتل النفوس أم بنشر لواء الحرية ونزع السلاح واستتباب السلام في العالم ؟

ان عصبتكم هي محكمة لدول العالم وكما أن المحكمة في كل بلد تحافظ على مُلك الفرد وحريته فلماذا لا تحافظ جمعيتكم العليا على أملاك الامم وحريتها ؟ – ما عجبت لامر في الدنيا مثل عجبي من الحرب . يقتلون النفوس البريئة ويستهلكون الاموال الطائلة لقتلها، واذا نجا أحد من الموت وبقي معذباً بجراحاته وآلامه، يصرفون الاموال الباهظة لمداواته ومؤاساته . فهم يشبهون بعملهم هذا رجلا يمسك بشخص ويرمي به من علٍ فتتكسر أعضاؤه ثم يتداركه بتجبيرها .

وكان منظر الحقيقة الشنيع لم يرق في أعين الاعضاء الكرام فأومأوا الى رئيسهم ليريحهم من استماع هذه النظريات . فالتفت الرئيس الى رفيق قائلا : إذهب يا بني الى الكنائس والمدارس فمجلسنا هذا ليس منبر وعظ وإرشاد .

المجمع الكنائسي

وبمناسبة وجود رفيق في جنيف بلغه انعقاد مجمع كنائسي فيها فقصد المجمع واستأذنه برفع التماس الى مقامه السامي . وبعد أن أجيز له ذلك تقدم بطلبه الذي يلخص بهذه الكلمات : لا يسمح لي التدخل في العقائد التي هي من خصائص المجامع المقدسة . ولكني انتهز هذه الفرصة الثمينة وأتجاسر وأذكّر مجمعكم المقدس بأنه أصبح غير مستحيل إتحاد الكنائس . ما دام الناس في هذه الأيام يفتكرون في توحيد الأديان . وما دام المسيح واحداً والإنجيل واحداً والقوانين واحدة . فالعالم المسيحي ينتظر من رؤسائه أن يسعوا للاتحاد .

وبعد أن عقد المجمع عدة جلسات كانت النتيجة انه قرر درس الاختلافات الموجودة بين الكنائس .

* * *

آخر أيام رفيق

شعر رفيق بانحطاط في قواه وتوعك في صحته فهمّ بالسفر إلى وطنه وما وصل إلى قريته حتى وقع طريح الفراش . وكانت والدته قد فارقت الحياة في غيابه وليس له من أخوة أو أبناء عم .

فأقبل سكان القرية للسلام عليه وكان بينهم طبيب قانوني ففحصه وعلى الأثر عقد اجتماعاً مع أهالي القرية وأخبرهم أن الفتى مصاب بداء السل في الدرجة الثالثة . وللحال قرروا أن يبعدوه عن القرية . فبنوا له كوخاً من القصب والغزار والبلان على رأس جبل . تطلع عليه الشمس من وراء ظهر القضيب ويطل على البحر المتوسط . هناك قضى رفيق آخر أيامه ولم يعد يقترب إليه أحد . بل كانوا يضعون له لوازمه من أكل

وشرب على مسافة مائة متر من كوخه ويذهب بنفسه ويتناولها . ففي أحد الأيام وقد أدركوا انه أصبح على وشك النهاية جاءه الكاهن وطلب إليه أن يسمع اعترافه . فأخذ يسأله من بعيد وهو يجيب على سؤالاته حتى قال له الكاهن : هل لك ان تقول شيئاً يا بنيّ فقال : تمنّيت الحرية لغيري ولم أحرّر نفسي من عبودية هذا العالم . جرّبت ان ألقّن الناس دروساً وأنا لم استفد من الاختبار درساً واحداً . وها أنا ذا أترك هذا العالم حاملا في نفسي كثيراً من الألم ضد أبنائه . لأني رأيت الأقوياء والأغنياء يهضمون حقوق الضعفاء والفقراء . وهؤلاء يحتالون على الحياة . والكل يتمتعون بخيرات هذه الدنيا الزائلة ما عدا صاحب المبادىء الحرة .

وقال له الكاهن : صل يا ولدي الروحي فقال : إلهي ما هذا السر الغريب وما هذا الإنسان الذي خلقته . هو إله في أفكاره وحيوان في أعماله . إلهي أضعت شبابي بنشر المبادىء البشرية ولم أدرس ناموسك المقدس . أردت أن أعرف كل شيء ولكني أهملت معرفة نفسي . (وماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه) فاغفر لي يا إلهي .

وبعد أيام قليلة فارق رفيقنا الحياة . فأخذوا جسده وكفنوه وفتشوا كوخه فلم يجدوا غير أوراق تحت فراشه كتب فيها حوادث حياته . وعن هذه الأوراق لخصت هذه الفصول . أما حفلة دفنه فكانت مقتصرة على كاهن القرية وخطبائها الذين عددوا مناقبه وبكوا شبابه . ودفن في قبر بسيط على رأس ذلك الجبل . ووضعت بلاطة فوق رأسه نقشت عليها هذه العبارة .

(ضحية المبادىء الحرة)

أقوال الصحف :

جريدة « الأحرار » تاريخ ٢٣ نيسان سنة ١٩٣٢

ضحية المبادىء الحرة

كتيّب صفير بقلم ب . خ . موضوعه رواية متتابعة الفصول وفيها دروس اخلاقية شائقة . جعل بطلها شاباً من كفرون اسماه رفيقاً . ونقله في الحياة من الطفولة إلى مدرسة القرية ثم إلى المدرسة الافرنسية فالى الجامعة الاميركية ، واخرجه عن مقاعد الدراسة إلى بحر العالم . فزجه في الصحافة . وأشهده الحرب الكونية وويلاتها . وعرفه إلى جمال السفاح . ثم أبقاه إلى ما بعد الحرب فنقله في رومه وجنيف واثينا . ومثله أمام جامعة الأمم . ثم رده إلى لبنان مريضاً بـداء السل تتأكل العلة رئتاه وأماته « ضحية المبادىء الحرة »

وهذه الفصول طلية منسجمة وجديرة بالمطالعة .

* * *

جريدة « الأقلام » تاريخ ٧ أيار سنة ١٩٣٢

ضحية المبادىء الحرة

«ضحية المبادىء الحرة» كراس صغير حبره أديب بتوقيع (ب.خ) ولعل السيد الأديب يقص علينا قصته في كراسه هـذا ، إذ بطل الرواية (رفيق) وهو فتى لبناني حط رحاله في اثينا ، والمؤلف نفسه لبناني رحل إلى اثينا ، ولعله انقص من الحوادث أو زاد فيها اتماماً للحكاية وزيادة لروعتها .

العبارة ليست كلها على نمط واحد بل فيها بعض الضعف ..

أما الروح الجياشة في تلك السطور القليلة ، فهي مما يحلو لكل ذي

روح وطنية ملتهبة وخلق أبي كريم .. ولا بدع فالاسم كالمسمى !

بقي أن نقول ان هذا الكراس الصغير أفضل من كثير من الكتب الضخمة الفارغة . لذا نود ان يقرأه كل ذي مبدأ . فيراه حافزاً له على تضحية نفسه في سبيل الانتصار للحق والثبات على المبدأ الحر حتى آخر نسمة من حياته .

* * *

جريدة « الحوادث » تاريخ ٢٢ نيسان سنة ١٩٣٢

ضحية المبادىء الحرة

كراس صدر عن أثينا بتوقيع ب . خ . أعرب الكاتب فيها عن نهج التربية التي تبث روح الحرية . وتحمل صاحبها على تضحية نفسه في سبيل نصرة الحق . وتطرأ في بحثه إلى قضية اختلاف الكنائس المسيحية داعياً إلى عقد مجمع لدرس الاختلافات الموجودة للوصول إلى اتحادها فيها

* * *

مجلة « الناشئة »

عدد نيسان سنة ١٩٣٢ صفحة ٢٢٣

تلقّينا كتاباً بقلم (ب . خ) فحتما انه لقدس الأرشمندريت بولس الخوري . لما وجدنا فيه من الروح السامية التي عرفناها في حضرته .

والكتاب في أسلوب روائي تقرأه فيملك عليك حواسك . ويجعلك في جوّ غير هذا الجوّ .

فنشكر للارشمندريت تقدمته

ضحية المبادىء الحرة

قرأت في عدد من الناشئة مقالا للاستاذ كنعان عن أدب القصة . فحوّل منظري إلى هذا اللون من الأدب ، وبحثت بدقة في ثنيات أدب العرب فلم أقف على شيء . ثم اتجهت بالمنظر إلى أدب هذا القرن الأخير حيث يقول الأستاذ ان أدبه في القصة يماثل أدبه في غيرها . أي ليس فيه ما يستحق الخلود. ولكنه على كل حال أصبح يثبت وجوده. وأصبح الأدباء يرون فيه لون الأدب الحقيقي . ومن الغرابة انه بينما كنت أفكر في هذا الموضوع دفع إليّ موزع البريد فيما دفع كتيباً يحمل اسم « ضحية المبادىء الحرة » بقلم ب . خ . وهو قصة. فقلت قد صح فأل الأستاذ كنعان . فأدباؤنا أخذوا يعالجون موضوع القصة ، ولكن مَن هذا ب . خ ؟ لا شك ان له مأرباً بالتستر. فقلت وربما اجتمع مع الناظر فيهذه الناحية . فهممت التهمها لأن الشكلول أقارب كما يقول أبو تمام . وأخذت اتصفحها واتدرّج أوراقها درجاً . وما هي إلا دقائق معلومة حتى رأيتني أعيد قراءتها . ثم حوّلت اليها منظري وقلت ما ضرّني هذه المرة ان أقدمها لقراء الناشئة الكرام . فمسى في نظرتي اهذه ما يشوقهم إلى مطالعتها. فيشركوني في نقدي فأكون قد خدمت لأدب خدمات بريئة نحتاج اليها عندما تستتر هذه الشخصيات .

ان كلمة « ضحية » في الشرق جذابه . لأن كل أدبه والعاملين به ضحية على مذابح الأثرة على الأقل .

« ومبادىء حرة » من الكلمات الجوفاء التي يسمح لي حضرة الأديب ب . خ أن أقول إنها أصبحت مبتذلة بالية ، فلو اسماها قصة « رفيق » كما سأبيّن لكان لها وقع حسن .

ان قصة « ضحية المبادىء الحرة » هي من القصص التي تستتر شخصية الكاتب وراءها ، مثل قصة « دافيد كبرفيلد » لديكنس الإنكليزي . وقصة « رينه » لشاتوبريان الافرنسي . ولكني أوافق الأستاذ كنعان في أن أدباءنا هم في أول عهدهم بالأدب عامة وأدب القصة خاصة . فلا يمكن أن نقول قصة « رفيق » ويسمح لي حضرة الأديب ب . خ ان أسمي قصته « رفيق » مجارياً أمثال ديكنس وشاتوبريان لا تقاس « بكبر فيلدولا رينه » إلا بالنية الطيبة والوطنية الخالصة ووصف الحياة اللبنانية الحقيقية . وربما كان وصف جبال لبنان وهضباته ولياليي شتائه هو الذي أغراني بان أغمض عيني وأرمي بمنظاري واسترسل لأحلامي وأماشي رفيقاً في ترهات هذه الحياة . ان « رفيق » هي بدء عهدنا بالقصة وهي على صفرها فاتحة خير أو نور ضئيل في ظلمات هذه الآداب المدلهمة .

وبعد ان فتحت عيني نظرت إلى « رفيق » فوقع منظاري على الصفحة الخامسة وقادني الطبع إلى ما هو بين قوسين « الله يساعد الفقير » « بعرق جبينك تأكل خبزك » « ما اعظم اعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت » ثلاث جمل قصيرة أرتني حياة اللبنانيين الهادئين الدنمين « الله يساعد الفقير » كلمة بفم كل لبناني « والله » والاي المقدسة » عصر ولادة رفيق كانت تعزية كل لبناني عند الشدائد. فقد أجاد الأديب ب . خ كل الاجادة في اظهار هذا اللون من الحياة التقوية في لبنان وما أحوجنا إلىهذه النواحي. والأديب كما يلوحلي هو من أولئك الأخوان الذين يرون في الدين كل تعزية وراحة . أنظر « فصل الدير صفحة ٢٠ » والدير قطعة نفيسة من قلب كل لبناني حقيقي . ألم تر الاديار أينما توّجهت ترّصع هذه الجبال الخضراء وترنّ أجراسها في بطون الأودية فتردد أصداء الجبال وتوّلد في قلب كل لبناني حنيناً

إلى الحياة المثلى التي يعجز كل قلم عن وصفها .

وأما خوض رفيق خضم السياسة وخاصة وهو مزبد فليعذرني حضرة الأديب أن اقول انه نافر . ولكن هي الحقيقة ، وهل ينجو اللبناني من الدخول في معترك السياسة ولكن السياسة الاسمية فقط . ألم يصرح الأديب وكل قصته من البدء إلى الختام روح وطنية لاهبة نحن في أشد الحاجة اليها « لأن هذه الشعوب الضعيفة قــد اعتادت الخضوع للاجانب فلا تستطيــع أن تعيش منفردة عن الدول الكبرى » (صفحة ١٩)

فاغمضت أجفاني ورجعت بذهني إلى قصة « البيت والعالم » لطاغور الهندي وكم لمته عندما قرأتها . وكم كان يفت في عضد الوطنيين وحضرة الأديب ب . خ جاء يلقي عليها هذه البذور في هذه الأفكار الغضة . ومن أهم ما يؤاخذ عليه حضرة الأديب المؤلف انه ينظر الى الحقائق بدون أن يلقي عليها بعض الرونق العاطفي . وأدب القصة يحتاج الى كثير من العاطفة . أما آراؤه الحرة ونظره الى العلوم خاصة صفحة ١١ فقد وفق كل التوفيق ولا سيما في حد التاريخ والفلسفة ، ولكنه أهمل حد الأدب وهو روح كل هــذه العلوم كما يقول « ارينان » . وامــا حكمته الظاهرة في كل القصة (سر الحياة) يظن المرء سعادته حيث يجد لذته الخ فهل اتفق الباحثون على شيء ليتفقوا في أغمض بحث (سر الحياة) . أما وقد طالت هذه النظرة والصفحات المحدودة لها انتهت ، فليعذرني القراء وحضرة الأديب ب . خ لاجمل قولي الآن :

ان القصة من حيث غايتها فمن الطراز العالي ونحن في أشد حاجة اليها . وأما من حيث لغتها وهو القلب الجذاب فلا بأس به ، انما كما يظهر قد بعد عهد حضرة الأديب بمعرفة الأصول والرجوع الى المعاجم

اللغوية ، وهذه هفوة تكاد تكون عامة في أدبائنا الكرام .

ولا يخلو سياق الرواية من نفور ، فهذه الافكار تحتاج الى أكثر من ٣٢ صفحة بحجم متوسط . فقد أوسع حضرته الشقة وقرّب المأخذ . فالرجاء الخاص ان يطل على هذا الادب بين كل آن وآخر ، يفرد لكل موضوع من هذه الافكار قصة ، فعسى ان نهتدي بنوره وأخاله وضاء فنقطة واحدة من البحر تدل على ملحه .

ووقع المنظار من يدي واطبقت عيني لئلا افقد حياة رفيق الاولى من ذاكرتي « حيث مزقت أشعة النور حجاب الظلمة ، وبرزت الغزالة فبدّدت جيوش الغيوم ، ونشرت أشعتها الذهبية في الافق فبانت قبته الزرقاء وارسلت لعابها على الارض فأحيا نباتها » .

« ناظر »

نقلا عن مجلة (الناشئة) عدد أيار سنة ١٩٣٢ صفحة ٢٨٦

ردّ على ناظر

طالعت في مجلة الناشئة الغراء المقال بامضاء « ناظر » عـــن قصة « ضحية المبادىء الحرة » فأعجبني نقد « الناظر ». ولكنه اشتغل في اللغة وفي الجهة الأدبيـــة. وترك النظر في المباديء التي قصدها واضع تلك القصة .

لذلك جئت ملمعاً الى بعض تلك المبـــاديء على صفحات الناشئة الغراء (المجلة الحرة). تنشيطاً للمؤلفين وتنبيهاً لأذهان المطالعين للاستفادة من معاني الكتب المطبوعة لا من مبانيها فقط فأقول :

في موضوع « القرية » عدا الوصف الذي شاق « الناظر » مباديء محبة العمل والاقتصاد والاعتماد على النفس .

وفي « العائلة » مباديء العدل والتدين والمحبة المتبادلة بين الزوجين وواجباتهما واصول التربية .

وفي « مدرسة القرية » مباديء التعليم النافع وتأثير الأم على ولدها.

وفي « المدرسة الافرنسية » مبدأ « التلامذة ينشأون على مباديء معلميهم »

وفي « الجامعة الامريكية » مباديء العلم الصحيح وتهذيب النفس قبل الطموح الى تهذيب الغير .

وفي « الصحافة » مبدأ الاصلاح الحقيقي .

وفي « لبنان أثناء الحرب » مباديء العناية في الزراعة والصناعة الوطنية والابتعاد عن التحزبات السياسية والتضحية في سبيل الوطن .

وفي « جمال باشا » مباديء حب الحرية وكره العبودية والاندفاع

في سبيل القومية .

وفي « الدير » منافع الوحدة وفوائد الدين الصحيح .

وفي « بعد الحرب » مبدأ الاستفادة من الاختبار .

وفي « رومية » مباديء الوطنية الحقة والشعور القومي والطموح الى الرقي والثبات في المبدأ .

وفي « جزيرة ثيرا » مبدأ محبة الوطن

وفي « أثينا » مبدأ اتحاد الأمة تحت لواء الوطن الواحد واللغـــة الواحدة والدين الواحد .

وفي « جمعية الأمم » ظهرت المباديء التي شاء الواضع نشرها إذ قال عن بطل قصته: « يحترم كل الناس على اختلاف مذاهبهم . ويعتبر الأرض وطن جميع الناس والإنسانية جنسيتهم .وهناك مبدآن .. هما اتحاد الأديان ونشر السلام » .

ومن يقرأ خطاب رفيق في جمعية الامم ولا يقول ان المباديء الحرة التي نشرها الأديب ب . خ هي وصايا ذهبيـــة تفيد المطالع والناظر المدقق .

الامضاء « **فؤاد بربر** »

نقلا عن مجلة (**الناشئة**) عدد عزيران سنة ١٩٣٢ صفحة٣٦٧

فلسفة الحياة

على أكمة من آكام لبنان الشمالي بين ظهر القضيب والبحر المتوسط ترى قرية صغيرة تحيط بها أشجار الزيتون والتوت والعنب . لا يعرف اهلها من مظاهر المدنية غير الدين . فلهم كنيسة وكاهن واحد يخدم فيها واسم القرية (الحياة) أما الكاهن فعدا قيامه بالفروض الدينية يعلّم الأولاد القراءة والكتابة ويشرع فيما بين أبناء رعيته . وهكذا يعيش هؤلاء القرويّون حياة طبيعية . فيقضي الرجال معظم أيامهم بالشغل في الأرزاق والنساء بتربية الاطفال وتدبير المنزل. وكلما تزوّج شاب يبنون له بيتاً يعيش مع زوجته بعيدين عن فصول الحماة والكنة. وكلهم يعيشون من خيرات الأرض .

اما عائلة الكاهن فهي مؤلفة من زوجة تمتاز في القرية بأنها تعرف القراءة والكتابة . وولدَين الواحد يساعد والده في خدماته الكهنوتية والاخرى « وهي بنت » تساعد والدتها في أشغالها .

كان الولد واسمه فريد في العاشرة من عمره عندما نزل لاول مرة مع ابيه إلى المدينة . وقبل أن يصلا اليها سمع عن بعد ضجيجاً خارجاً منها فسأل والده : هل المدينة ساحة لعب ؟ فأجابه : هـذا صوت حركة الاشغال . ولما دخلا اليها اخذ يتفرّج على كل شيء جديد في نظره . حتى وصلا امام بناية فخمة افاده والده أنها مدرسة يتعلم فيها الاولاد العلوم . وعند ذلك سأل الولد أباه :

— هل يوجد غير القراءة والكتابة من العلوم ؟

نعم توجد علوم كثيرة ولكني لا اعرف منها غير اسمائها إنما اعرف أن الغاية منها هي سعادة الإنسان .

وإذا كنا سعداء ولا نعرف أكثر من القراءة والكتابة الا نحتاج إلى المدرسة ؟

فسكت الوالد عـن الجواب . ولكن السكوت أوجد الحيرة في قلب الولد . والحيرة ولدت شوقه لمعرفة المدرسة .

وعندما عادا إلى البيت سألت الوالدة ابنها : كيف رأيت المدينة؟

فأجابـها : رأيت الناس يتراكضون ويضجّون ولكن لم اعلم السبب .

كل ذلك ليعيشوا يا ابني

نحن هنا نعيش ومع ذلك لا نضج يا والدتي .

وعندها قالت الوالدة لزوجها : لا يزال فريد صغيراً ولا يعلم ان في الحياة اشياء لم يعرفها بعد : ألم اقل لك مراراً ان ننزل الى المدينة فيتعلّم ولدنا العلوم . ونعيش نحن بعيدين عن الفلاحين وأوساخهم ؟ (لانها كانت تسمع عن حياة النساء المدنيّات الفخمة)

فوقع هذا الكلام على مسامع فريد وقع البذور في الارض الجيدة فنما واخذ يطالب والديه بالنزول الى المدينة . وما زال مصراً على طلبه حتى اضطر الأب ان يبيع املاكه ويرحل مع عائلته الى المدينة.

في المدينة يضيع الأصل والفصل . فصار الخوري يدور من هنا الى هناك ليجد بيتاً ليستأجره فلم يجد وبات ليلته الاولى في الفندق . وفي الصباح ذهبت زوجته فوجدت منزلا في الطابق السفلي فاستأجرته ووضعت فيه أثاثها. وهكذا عاشت هذه العائلة مجهولة في المدينة حتى من جيرانها .

وما مضت مدة طويلة حتى تعلّمت الزوجة ان تخرج من البيت كل يوم بحلة جديدة والولدان ان يذهبا الى المدرسة العليا . ولما أنهى فريد القسم الاستعدادي فرح به والداه . اما هو فلم تظهر عليه علامات السرور فسألته والدته : لماذا لا تفرح بنجاحك يا ولدي ؟ أجابها : كنت أفرح بأني سآخذ الشهادة ولكن عندما اخذتها فقدت عاطفة الفرح . والآن افتكر بأني لم احصل على الذي قصدته من المدرسة لاني اردت أن افهم ما هي الغاية من العلم وأنا لم افهم ذلك . إذا كانت الغاية من العلم أن أصير سعيداً فأنا اليوم اشد تعاسة من ذي قبل مع أني بلغت العشرين من عمري. واليوم يا والدتي بنوع خصوصي اشعر بشوق عظيم للقرية التي وُلدت فيها . اريد أن ارى البيت الذي عشت فيه صغيرا والساحة التي كنت العب فيها مع رفاقي . وشرع يبكي فأثّر البكاء في قلب والدته فاقنعت زوجها بارسال فريد الى أقربائه في القرية لتمضية بضعة ايام بينهم.

ما كان اشد فرح فريد وهو يقترب من القرية . وما وصل أمام بيت جارهم القديم حتى رأى فتاة طويلة القد موردّة الخدين لابسة ثوباً بسيطاً يحللها من فوق الى اسفل فظن نفسه انه يرى ملاكاً . وإذ كلمته بصوتها المرتجف من الحياء نهض وسلّم عليها فأفهمته أن ينصرف إلى بيت اقربائه واعدة اياه بأنها ستراه في وقت آخر .

بقي فريد في القرية أسبوعاً كاملاً وهو يزور بيوتها على جاري العادة في القرى . ويمتع نظره بكل ما يذكّره بأيام صباه وعندما قرر الرجوع إلى المدينة تلبية لطلب والديه سأل ليلى أن يتحدث معها ساعة من الزمن وإذ أجابت سؤاله دار بينهما الحديث الآتي :

فريد — أشعر بأني صرت لا أقدر أن أبعد عنك فماذا يجب

أن أعمل ؟

ليلى — يجب أن تبقى قريباً مني !

— ولكن ما هي الطريقة للبقاء بقربك ؟

— هي طريقة شرعية اوعز بها الله من أيام آدم وحواء .

— فهمت قصدك ولكن أين الدراهم لاقدر ان أبني بيتاً واين الارض لنعيش بخيراتها وقد بعنا الارض وصرفنا الدراهم .

— سافر إلى اميركا وأحضر دراهم وهلمّ لنعيش رفيقين في هذه الحياة .

— لتكن مشيئتك يا ليلى . والآن هاتي يدك لاودعك فتصافحا وافترقا .

عاد فريد إلى المدينة وهو يحسب الشهور والأيام التي ستفصل بينه وبين وطنه . وعندما سأله والده عن القرية قال : لقد ذكّرتني ايام سعادتنا فيها . وذكرت اننا اضعنا الاملاك وصرفنا اثمانها والآن لا يوجد طريقة للحياة غير السفر لاميركا . لعلي اتوفق بجمع المال واعود اليكما فاجعل حياتكما سعيدة إن شاء الله . وبعد اللتي والتي استدان له والده نفقات السفر ووعد الابن بأنه سيرسل قيمتها إلى ابيه في اول فرصة وهكذا ودع وسافر .

وصل إلى بوسطن فوجد فيها كثيرين من اللبنانيين فساعدوه على الدخول في معمل ما . وعندما توّفرت لديه القيمة المالية ارسلها في كتاب مضمون إلى والده . وبعد مضي شهرين عاد الكتاب اليه . وما كان أشد انذهاله عندما فتحه فوجده الكتاب الذي ارسله . وبعد

ايام قليلة جاءه نبأ وفاة والده. (ولذلك ارجع اليه الكتاب المضمون) بكى فريد بكاء مراً على فقد والده (على غير انتظار) ووقف عن الشغل حتى فرغت جيبه فاضطر بدافع الحياة ان يعود اليه قائلا في ذاته : لقد خسرت القسم الاول من سعادتي فيجب ان أسعى لاكسب الباقي منها . وهكذا أمضى سنتين مجدّاً في الشغل (لان الشغل هو التعزية الوحيدة للانسان في المصائب) . وعاد إلى وطنه فرأى والدته وأخته بالصحة . وبعد أن قضى معهما مدة وقام بواجباته نحوهما ذهب إلى القرية وبات في بيت عمه . وفي اليوم التالي سأل عن ليلى فقيل له أنها أعطته عمرها . وعند ذلك كشف الستار عن أمره ببكائه وندبه على من كانت غاية سعادته ولم يقدر ان يتعزى بعبارات أهله واصحابه بل ودعهم وخرج من القرية . ولكنه بدلا من ان يتوجّه إلى المدينة توجّه إلى جبال لبنان الشاهقة . قائلا في ذاته لا أقدر ان أعود إلى المدينة لانها سبب تعاستي ولا ان اعيش في القرية متنعما وليلى تحت ترابها . أواه ما هذا السر سرّ الحياة التي ما أنعمت علي بدرهم من السعادة حتى صبّت فوقي ميازيب التعاسة والشقاء ؟ وعندما مالت الشمس إلى الغروب تطلّع فرأى ديراً قديماً دخل اليه فوجد فيه راهباً واحداً ودار بينهما الحديث الآتي :

الراهب — من اين أنت قادم يا ابني ؟

فريد — من الشقاء والتعاسة

الراهب — إذاً انت قادم من المدينة ؟

فريد — كلا أنا قادم من القرية

الراهب — وهل في القرية شقاء ؟

فقصّ عليه قصته . وبعدما فرغ منها قال له الراهب : ان ما أصابك ليس إلا للخير . فوالدك مات مسروراً باخبار نجاحك اكثر من سروره بدراهمك . وليلى ماتت وهي سعيدة بأمل الاقتران بك اكثر من الاقتران ذاته الذي يجر هموم الاولاد وفقدهم . فما السعادة يا ابني إلا في الأمل وما التعاسة إلا في اليأس. والآن خُذْ هذا الكتاب واقرأ فيه وغداً سنلتقي (وتركه في غرفة لينام فيها) وقرأ فريد في الكتاب فوجد عزاء لقلبه . وفي الصباح قال للراهب اشكرك يا أبت على الكتاب الذي افهمني الغاية من حياتي عموماً وخصوصاً من العلم. إلا وهي تقوية قوى النفس الصالحة وخصوصاً الإرادة التي بدونها لا يقدر أن يحيا الإنسان في هذا العالم المملوء بالمصائب .

فسرّ الراهب بخلاص نفس على يده ودفع إلى فريد مئة ليرة وقال له : عد إلى أمك وأختك وخُذهما إلى القرية وعِشْ معهما هناك متعزياً بأنك تعيش بقرب والدك وحبيبتك . ولا تطلب السعادة إلا في وطنك وفي القناعة بما ينعم به الله عليك . والصبر على ما يسمح به من المصائب لغايات نجهلها .

فانصرف فريد شاكراً ممتلئاً من الإيمان. وعاش مع والدته واخته في القرية عيشة طبيعية. وصار مثالا حسناً للفلاح النشيط الذي يصدق به قول المثل (فلاح مكفي سلطان مخفي) ولا يزال إلى اليوم في « قرية الحياة » .

مؤلفات

المطران بولس الخوري

١ – مقالات

٢ – محاضرات

٣ – سيرة حياة

٤ – منظومات

٦ – ضحية المباديء الحرة

٧ – كلمات

٨ – مذكّرات

٩ – تاريخ دير صيدنايا

١٠ – الفروقات بين الكنائس